(٦)

كذبة إبريل عادة قبيحة[١]

الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

كذبة إبريل :

يستقبل الناس في يوم الغد : أوَّل شهر نيسان أو إبريل . وقد تعوَّد الناس في هذا اليوم عادة قبيحة ، لم تنبت في أرضنا ، ولم تخرج من ديارنا ، إنما اقتُبِست من بيئة غير بيئتنا ، ومن بلاد غير بلادنا .

هذه العادة القبيحة السخيفة هي ما سمَّوه : كذبة إبريل ، أو كذبة أول نيسان .

يكذبُ الناس بعضهم على بعض في هذا اليوم ، يتَّصل أحدهم بصاحبه ، أو تتصل إحداهنَّ بصديقتها وتبلغها نبأ لا أصل له ، قد يكون نبأ مُفرحًا مُهمًّا جدًّا ، ثم يظهر أن هذا شيء لا أساس له . وكثيرًا ما يكون النبأ مُزعجًا مُروِّعًا مفزعًا ، يفزع الإنسان له ويضطرب له قلبه وفؤاده ، ثم بعد مدَّة يتصل الشخص ثانية ويقول : لا ، لم يحدث شيء ، إنها كذبة إبريل!

وكأن هذا أمر سهل هيِّن : أن يكذب الإنسان الكذبة ؛ ليروِّع بها صاحبه ، ثم يقول له : هذه كانت مِزْحة ، كانت هَزْلة .

وللأسف شاع الكذب في حياتنا كلِّها ، وليس هذا الأمر وحده .

كذبة إبريل حرام لوجوه :

هذا الأمر مُحرّم من وجوه عدَّة :

الأول : أنها كذب :

فهو مُحرَّم لأنه كذب ، والكذب ليس من أخلاق المؤمنين ، وإنما هو من أخلاق المنافقين : « آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن

---

(١) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في ٣١ مارس ٢٠٠٠م .

خان»[1] وفي بعض الروايات :«وإنْ صام وصلَّى وزعم أنه مسلم»، وفي حديث آخر : «أربع مَن كُنّ فيه كان منافقًا خالصًا ، ومَن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر»[2].

المنافقون هم الكذَّابون ، يكذبون في الدنيا ، ويكذبون في الآخرة . يكذبون على الناس ، ويكذبون على الله حتى في يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾(المجادلة:١٨).

هذا العمل مُحرَّم ؛ لأنه خُلُقٌ منافٍ للإيمان . في بعض الأحاديث سئل النبي ﷺ : «أيكون المؤمن جبانًا ؟» فقال : «نعم» . فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : «نعم» . فقيل له : أيكون المؤمن كذَّابًا ؟ فقال : «لا»[3]. لأن الإنسان قد يكون من طبعه الجُبْن ، يخاف من خياله ، وقد يكون من طبعه الشحُّ ، لا يجود بالمال بسهولة ، فيمكن أن يكون المؤمن جبانًا أو بخيلاً ، وإن كان هذا كما جاء في الحديث : «شرُّ ما في رجل : شُحٌّ هالع ، وجُبْنٌ خالع»[4].

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) ، كلاهما في الإيمان ، كما رواه أحمد (٨٦٨٥) ، والترمذي (٢٦٣١) ، والنسائي (٥٠٢١) ، كلاهما في الإيمان ، عن أبي هريرة .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٨) ، كلاهما في الإيمان ، كما رواه أحمد (٦٨٦٤) ، وأبو داود في السنة (٤٦٨٨) ، والترمذي (٢٦٣٢) ، والنسائي (٥٠٢٠) ، كلاهما في الإيمان ، عن عبد الله بن عمرو .

(٣) رواه مالك (٣٦٣٠) ، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (٤٨١٢) ، عن صفوان بن سليم مرسلا .

(٤) رواه أحمد (٨٠١٠) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح ، وأبو داود في الجهاد (٢٥١١) ، وابن حبان في الزكاة (٣٢٥٠) ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٦) ، عن أبي هريرة . وإنما كان الشح الهالع ، والجبن الخالع شر ما في الرجل ، لأن الدعوات لا تنتصر ، والأمم لا تنهض إلا بخلقين رئيسين : السخاء الذي يهون معه بذل المال ، والشجاعة التى يهون معها بذل النفس ، فإذا شحَّ الناس بأموالهم ، وضنُّوا بأنفسهم ، فلن تقوم للأمة قائمة .

ولكن ليس المؤمن كذَّابًا ، لا يكون كذَّابًا . الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ (النحل:١٠٥)، المؤمن لا يكون كذَّابًا ، جاء في الحديث : « يُطبع المؤمن على كلِّ خلَّة ـ أي : على كلِّ خَصْلة ـ غير الخيانة والكذب »[1].

ولذلك أقول : هذا العمل القبيح ـ كذبة إبريل ـ حرام لأنها كذب ، وكذب صريح .

ثانيًا : أنها ترويع للمسلم بغير حق :

ثم إنها تفزع وترُوِّع الإنسان بغير حقٍّ ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام قال : « لا يحلُّ لمسلم أن يُروِّع مسلمًا »[2]. ولو كان ذلك بالمزاح والدُعابة ، فقد جاء في الحديث : أن الصحابة كانوا في مسيرة ، في سفر ، وكان أحدهم على راحلته فخفق ـ يعني : نَعَس ـ فلحظ ذلك بعض أصحابه ، فأخذ سهمًا من كنانته ـ أحبَّ أن يُفزعه ـ فانتبه الرجل ففزع ، ولاحظ ذلك النبي ﷺ فقال : « لا يحلُّ لمسلم أن يروِّع مسلمًا »[3] ، يدخل عليه الفزع ولو كان مازحًا معه .

فهذا وجه آخر من وجوه التحريم .

---

(١) رواه أبو يعلى (٧١١)، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (١٠/١٩٧) مرفوعًا وموقوفًا ، وقال : هذا موقوف وهو الصحيح ، وقال الدارقطني في العلل (٤/٣٢٩) ، بعد أن ذكره : والموقوف أشبه بالصواب ، وقال في المقاصد صـ٥٠٣ ، بعد أن ذكر كلام الدارقطني : ومع ذلك فهو مما يحكم له بالرفع على الصحيح لكونه مما لا مجال للرأي فيه ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه البزار وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح (١/٢٧٣) .

(٢) رواه أحمد (٢٣٠٦٤) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح ، وأبو داود في الأدب (٥٠٤٤) ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٥٨) .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (١٦٧٣) ، عن النعمان بن بشير ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجال الكبير ثقات (٦/٣٨٦) ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٠٦) .

ثالثًا : أنها خيانة للصاحب :

ووجه ثالث : أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « كبُرت خيانةً أن تحدِّث أخاك حديثًا هو لك به مُصدِّق ، وأنت له به كاذب»[1] . الرجل الذي يسمعك طيِّب القلب ، مسالما ، يُصدِّقك ، ويأخذ الأمر مأخذ الجدِّ ، وأنت تكذب عليه ، أنت تخون صاحبك بهذا .

فهذا وجهٌ ثالث من أوجه الحرمة في هذه القضية .

رابعًا : أنها تقليد لغيرنا :

وجهٌ رابع : هو أن هذه العادة تقليدٌ لغيرنا ، تقليدٌ أعمى . ننقل عن الغربيين الغثَّ والسمين ، والهَزْل والجدَّ ، والطيِّب والخبيث ، وما يليق وما لا يليق ، وهذا لا يناسب أمةً جعلها الله أمةً وسطًا ، وجعلها شهيدةً على الناس ، بوَّأها مكان الأُستاذيَّة للبشرية . ولذلك جاء في الصحيحين : أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « لتتَّبعنَّ سَنَن مَن كان قبلكم ـ أو سُنَنَ من قبلكم ـ شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم»[2].

الحياة الإسلامية تقوم على الصِّدق :

لا ينبغي أن يشيع الكذب في الحياة الإسلامية . الحياة الإسلامية تقوم على الصدق ، ولا تقوم على الكذب والزَّيف . المسلم صادق ، هو صادق في نفسه ، وصادق مع أهله ، وصادق مع الناس أجمعين ، صادق مع مَن يُسالم ، وصادق مع مَن يُحارب ، هو صادق في كلِّ حالاته ، فإنَّ الصدق خصْلة من خصال الإيمان .

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٧١) ، والبيهقي في الشهادات (١٠/١٩٩) ، والطبراني في المعجم (٧/٧١) ، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (١٠٥٨) ، وقال النووي في الأذكار صـ(٣٣٩) : رويناه في سنن أبي داود بإسناد فيه ضعف ، لكن لم يضعفه أبو داود فيقتضى أن يكون حسنا عنده ، عن سفيان بن أسيد الحضرمي .

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦) ، ومسلم في العلم (٢٦٦٩) ، كما رواه أحمد (١١٨٤٣) ، عن أبي سعيد الخدري .

كان محمد ﷺ مشهوراً بالصِّدق في الجاهلية والإسلام ، وحينما جمع الناس عند الصفا وقال لهم : «أرأيتَكم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقيَّ ؟» . قالوا : ما جَرَّبنا عليك كذبًا[1]. لم يكذب قط .

وقال هرقل : «لم يكن ليَذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله»[2].

الأنبياء من أول أوصافهم : الصدق والأمانة . كلُّ الأنبياء صادقون أمناء ، وينبغي أن يكون أتباع الأنبياء صادقين في أفعالهم ، صادقين في أمور حياتهم كلِّها .

ولذلك إذا شاع الكذب في الحياة فليست هذه حياة إسلامية ، نحن نرى حياتنا الآن ـ للأسف الشديد ـ تقوم على الكذب في أمور كثيرة : الحياة السياسية تقوم على الكذب ، وعلى الخداع ، وعلى الزيف . والحياة الاجتماعية تقوم على الكذب ، والحياة التجارية تقوم على الكذب .

انتشر الكذب بين الناس ، وأصبحوا يقولون : هناك كذبٌ أبيض ، والكذب الأبيض لا يضرُّ! فيمكن للإنسان أن يخترع له شيئًا من الأشياء أو عُذرًا من الأعذار ، وهو غير صحيح .

لا ، إنه يضرُّ ويضرُّ كثيرًا كثيرًا ، فلا ينبغي أن يلجأ المؤمن إلى الكذب .

حالات يجوز فيها الكذب :

الإسلام لم يُجِز الكذب إلا في حالات معيَّنة ، مثل ما ذكره العلماء : أن يكون هناك رجل ظالم يبحث عن إنسان بريء يريد أن يقتله بغير حقٍّ ، وجاء واختبأ عندك ، فلا يجوز لك أن تَصدُق إذا سألك هذا الظالم : أرأيتَ فلانًا؟ لا تقل له : رأيتُه ، لأنك بذلك تتسبَّب في قتله بغير حقٍّ .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٧٧٠) ، ومسلم في الإيمان (٢٠٨) ، كما رواه الترمذي في التفسير (٣٣٦٣)، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٧٥٣)، عن ابن عباس .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (٧) ، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣) ، كما رواه أحمد (٢٣٧٠) ، وأبو داود في الأدب (٥١٣٦) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧١٧) ، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير (١٠٩٩٨) ، عن أبي سفيان بن حرب .

وروت أمُّ كلثوم بنت عقبة ـ وكانت من المهاجرات الأُوَل ـ أنها لم تسمع النبي ﷺ يُرَخِّصُ في شيءٍ ممَّا يقول الناس إلا في ثلاث : الحرب ـ فـ« الحرب خدعة »[1] ـ والإصلاح بين الناس ـ أي : بين المتخاصمين ـ وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها[2] . فهذه الأمور الثلاثة يجوز الكذب فيها :

الموضع الأول : الكذب في الحرب :

في الحرب : فليس معقولاً إذا أُخذ الإنسان أسيرًا أو نحو ذلك ، وسأله الأعداء أن يُحدِّثهم عن قوَّة الجيش وأسلحته ومواضع الأسلحة ، ويكشف العورات ، ويدلُّ على مواطن الضعف في الجبهة الداخلية ، ويقول : أنا قلتُ الصدق! لا ، هذا الصدق يُدمِّر الأمة .

الموضع الثاني : الإصلاح بين الناس :

فلا ينبغي أن ينقل المرء ـ وهو يحاول أن يقرِّب بين متباعدين أو يُصلح بين متخاصمَيْن ـ ما يسمع من الكلام من هذا في حقِّ هذا ، بل يكتم ما سمع ، أو يُزوِّقه : يحذف البعض ، ويزيد البعض ، بحيث يُقرِّب المسافة بينهما ، كما جاء في الحديث الآخر : « ليس الكذَّاب الذي يُصْلِحُ بين الناس ، ويقول خيرًا ويَنمِي خيرًا »[3] ، « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ ». قالوا : بلى . قال : « إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة »[4] . وفي حديث :

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في (٣٠٣٠) ، ومسلم (١٧٣٩) ، كلاهما في الجهاد والسير ، كما رواه أحمد (١٤١٧٧) ، وأبو داود (٢٦٣٦) ، والترمذي (١٦٧٥) ، كلاهما في الجهاد ، عن جابر .

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٠٥) ، وأحمد (٢٧٦٠٨) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٢١) ، والنسائي في الكبرى كتاب السير (٨٥٨٨) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٥) ، كما رواه أحمد (٢٧٢٧٢) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٢٠) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٨) ، عن أم كُلثوم بنت عقبة .

(٤) رواه أحمد (٢٧٥٠٨) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح ، وأبو داود في الأدب (٤٩١٨) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩) ، وقال : حسن صحيح ، عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨١٤) .

«لا أقول تحلق الشّعر ، ولكن تحلق الدين»[1]. فمن أجل هذا أُجيز التزيين والتزويق للتقريب بين هذين المُتَجَافيين أو المتقاطعَين .

الموضع الثالث : في العلاقات الزوجية الحميمية :

كذلك علاقة الرجل مع زوجته وعلاقة المرأة مع زوجها ، ليس من الضروريِّ أن يُصارح الرجلُ امرأته بحقيقة ما عنده ، حتى لو كان ينفر منها لا يقول لها : إني أنفر منك . بالعكس يحاول أن يَتَودَّد لها ، فتتودَّد إليه ، فربَّما كان هذا التودُّد يزيل هذه النُّفرة .

ولذلك حينما جاء رجل إلى سيدنا عمر وأخبره أنه طلَّق امرأته لأنه سألها : هل تحبه؟ فلم تجب ، فحلف عليها أن تجيبه ، فقالت له : أنا لا أحبُّك . فجاء هو والمرأة إلى سيدنا عمر وقال : سل هذه لماذا طلقتُها؟ ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، ناشدني الله أفيسعني أن أكذب؟ قال لها : نعم ، إذا كانت إحداكنَّ لا تحبُّ أحدنا فلا تحدِّثه بذلك ، فإن أقلَّ البيوت ما بُني على الحبِّ ، وإنما يتعاشر الناس بالأحساب والدين[2] . بالدين وبالأخلاق يتعاشر الناس .

هذه هي المواضع التي رخَّص فيها الإسلام في الكذب ، ذلك لأن هذا الدين دين واقعيٌّ . هناك بعض الفلاسفة المثاليين ـ دعاة فلسفة الواجب ، مثل الفيلسوف الألماني الشهير (كانط) ـ لا يسمح بالكذب في أيِّ حال من الأحوال . ولكن الإسلام دين واقعيٌّ يعالج الواقع بما يلزم له ، فإنما حُرِّم الكذب لما يترتَّب عليه من أضرار وخبائث ، فإذا كان الصدق نفسه يترتَّب عليه أضرار ، فالصدق في هذه الحالة ضارٌّ .

---

(١) رواه أحمد (١٤٣٠) ، وقال مخرّجوه : إسناده ضعيف لجهالة مولى آل الزبير ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠) ، والبزار (٢٢٣٢) ، عن الزبير بن العوام ، وجوَّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٢٨٥) .

(٢) رواه البخاري في التاريخ (٤/١٥٢) .

صدق مذموم :

ولذلك قالوا : هناك صدق قبيح مذموم ، منه : نقل الكلام الذي يسمعه الإنسان ، وهذه هي النميمة . النّميمة : أن تنقل الكلام الذي سمعتَه بالحرف من شخص إلى شخص ، أو من فئة إلى أخرى ، لتفسد ما بينهما .

هذا صدق مذموم .

ومن الصدق المذموم : ثناء المرء على نفسه ، أن يمدح الإنسان نفسه ويُزكِّيها عند الآخرين ، فالله تعالى يقول : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (النجم:٣٢) ، وذمَّ الله اليهود فقال : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (النساء:٤٩). ذلك أن اليهود زعموا أنهم شعب الله المختار . والناس يقولون في الأمثال : لا يشكر نفسه إلا إبليس! ذلك أن إبليس حينما امتنع عن السجود لآدم وسئل : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾(ص:٧٥،٧٦) .

في المعاريض مندوحة عن الكذب :

الإسلام أباح الكذب في مواضع معيَّنة لضرورات ، والأصل أن المسلم لا يلجأ إلى الكذب الصريح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فقد جاء عن الصحابة ﷺ : إنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب[1] . والمقصود بالمعاريض : أن تُلوِّح ولا تُصرِّح ، وأن تُورِّي بالكلام ، أن تقول الكلام تقصد به معنى ، ويفهم السامع معنى آخر ، والمعنى الذي قصدتَه صحيح . كما سئل النبي ﷺ في غزوة بدر ،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في الأدب (٢٦٦٢٠) ، والبخاري في الأدب المفرد باب المعاريض (٨٥٧) ، والطبراني في الكبير (١٠٦/١٨) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (١٩٩/١٠) ، عن عمران ابن حصين موقوفًا ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٢٣٨/٨) ، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٦٢) . ورواه ابن أبي شيبة في الأدب (٢٦٦١٩) ، والبخاري في الأدب المفرد باب المعاريض (٨٨٤) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (١٩٩/١٠) ، عن عمر .

حين وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش ، وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم؟ فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني ، ممَّن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ : « إذا أخبرتنا أخبرناك » . فقال : وذاك بذاك؟ قال : « نعم » . فلما أخبرهم وفرغ من خبره قال : ممَّن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ : « نحن من ماء » . ثم انصرف عنه قال : يقول الشيخ : ما من ماء؟ أمن ماء العراق[1]؟ ففهم الرجل كأنهم جاءوا من العراق ، أو من هذه البلاد التي فيها الأنهار . والنبيُّ عليه الصلاة والسلام يقصد بقوله (من ماء) : ما جاء في القرآن من مثل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ (الطارق:٥-٧) ، ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ (المرسلات:٢٠-٢١) .

وسئل أبو بكر رضي الله عنه : مَنْ هذا الذي معك؟ فقال : هذا الرجل يهديني السبيل[2] . ففهموا منه : أنه الهادى الذي يدلُّه على طريق السفر ، وأبو بكر يقصد يهدينى إلى طريق الله ، وإلى الجنة ، وإلى الصراط المستقيم .

وسأل الأمير زيادُ بن أبي سفيان أحدَ التابعين ، مُطرِّف بن عبد الله : ما الذي أخَّرك عنا؟ صار لك مدَّة لم نرك . فقال له : أيها الأمير ، والله ما رفعتُ جَنْبًا منذ فارقتك إلا ما رفعني الله عزَّ وجلَّ[3] . ففهم : أنه كان مريضًا . ولكن حتى الصحيح لا يرفع جَنْبًا إلا ما رفعه الله .

فبمثل هذه المعاريض يمكن للإنسان أن يتخلَّص من المأزق[4] .

ولذلك كان الشعبي إذا جاءه أحد ولا يريد أن يقابله ـ ربما لأنه ظالم أو فاسق ـ فيأمر الجارية أن ترسم دائرة وتضع أصبعها فيها ، وتقول له : ليس ههنا! تقصد ليس في هذه الدائرة .

---

(١) رواه ابن جرير في التاريخ (٢/٢٧) .

(٢) جزء من حديث طويل : رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩١١) ، وأحمد (١٣٢٠٥) ، عن أنس .

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (٧/١٤٤) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٨/٣١٢) .

(٤) انظر : أمثلة من المعاريض التي كانوا يلجأون إليها أحيانًا في (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي (١٠/١٦٠) .

وهكذا كانوا يتخلَّصون بمثل هذه المعاريض عند الضرورة . لكن الأصل هو الصدق الصريح .

شيوع الكذب في جوانب الحياة :

مشكلتنا الآن : أنَّ الكذب قد شاع في كلِّ ألوان الحياة الاجتماعية ، والتجارية ، والسياسية .

١- الكذب في الحياة الاجتماعية :

في الحياة الاجتماعية نجد الناس سَمَّوا الأشياء بغير أسمائها ، زيَّفوا لها أسماء جديدة ، حتى قال أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله :

ما كان في ماضي الزمان مُحرَّمًا ... للناس في هذا الزمان مُباحُ
صاغوا نُعوتَ فضائلٍ لعيوبهم ... فتعذَّر التمييزُ والإصلاحُ
فالفتك فنٌّ والخداعُ سياسةٌ ... وغنى اللصوص براعةٌ ونجاحُ
والعُرْيُ ظُرفٌ والفسادُ تمدُّنٌ ... والكذب لطفٌ والرياء صلاحُ!

هكذا قال شوقي رحمه الله .

كذب الناس على أنفسهم حتى صدقوها ، وزيَّفوا لهم مصطلحات جديدة : الانحراف يُسمُّونه تطوُّرًا ، والفساد يُسمُّونه تمدُّنًا ، والعُرْيُ يسمُّونه تحرُّرًا ، وهكذا .

والبعض يقول : أنا لا أكذب ولكن أتجمَّل . يعني : يضع مكياجا! والمبالغة في المكياج أيضًا كذب . المرأة التي تُبالغ في التزيُّن ، والكوافير التي تُبالغ في تزيين المرأة ، هذا كلُّه نوع من الكذب .

هذا في حياتنا الاجتماعية .

٢- الكذب في الحياة الاقتصادية :

وفي حياتنا الاقتصادية والتجارية ساد الزيف والكذب في حياة الناس .

كان السلف يقولون : أطيب الكسب كسب التجار ، الذين إذا باعوا لم يَمدحوا ، وإذا اشترَوا لم يَذمُّوا . ومعنى أنهم إذا باعوا لم يَمدحوا : أنهم لم يُحاولوا أن

يَمدحوا السلعة ويزينوها حتى يُغرُّوا المشتري ، وإذا اشترَوا لم يَذمُّوا ، لم يَذمُّوا السلعة كأن يقولوا : هذه ما تساوي شيئًا . حتى يقرر البائع بيعها بأي ثمن . هكذا كانوا .

الإغراء بالشراء عن طريق المبالغة في الدعاية والإعلان :

الآن انظر ماذا صنعتْ بنا الحضارة الغربية؟ دخلت علينا بخيلها ورَجِلها ، وزيَّنت لنا كلَّ شيء : الإغراء بالشراء ، التزيين المبالغ فيه ، الدعاية والإعلان . حتى إني سمعت بعض الناس يقول : أصرفُ (٥٠٪) أو (٦٠٪) أو (٧٠٪) على الإعلان! هذه هي التجارة الجديدة . قلتُ له : هذا على حساب مَنْ؟! لا شك أنها على حسابي وحسابك ، أنت المشتري المستهلك ستدفعُ هذا في النهاية . يعني : السلعة تكلَّفت (٣٠) يصرف عليها (٧٠) ويبيعك إياها بـ(١٠٠) ! لماذا ؟ هذا ظلم ، هذه سرقة .

لكنْ هكذا يفعل الغرب ، وهكذا يفعل أتباعه .

ليفعل الغرب ما يشاء ، لسنا عبيدًا له . لماذا نفعل ذلك عندنا؟ لماذا نُغْري الناس بأن يشتروا ما لا حاجة لهم إليه؟ ما هذا الطمع؟ وما هذا الشَّرَه؟ الإنسان بدل أن يكون عنده ألف يريد عشرة آلاف ، والذي عنده عشرة آلاف يريدها مائة ألف ، والذي عنده مائة ألف يريدها مليونًا ، والذي عنده مليون يريده عشرة ملايين ، والذي عنده عشرة ملايين يريدها مليارًا ، وعُبَّاد المال كجهنم إذا قيل لها : هل امتلأتِ؟ تقول : هل من مزيد؟

ومن أجل ذلك رأينا هذا التنافس الغريب في الدعاية والإعلان ، وهذه هي السوق الغربية . أنا أعتبر أنَّ هذا حرام ، ولا أقرُّه .

المبالغة في الدعاية والإعلان ليشتري الناس ما لا حاجة لهم إليه ، ويرموا بسلعهم القديمة : هذا لا يجوز ، لأننا نُغْري الناس بالإسراف في الاستهلاك ، والله تعالى يقول : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف:٣١) ، ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ (الإسراء:٢٦،٢٧).

أَمِنْ أجل أن أكسب أنا ، أدعو الناس إلى أن يشتروا ؟ وهم يشترون ـ أحيانًا ـ بالديون ، وبالتقسيط ، والشراء بالتقسيط مشكلةٌ كبيرة . حينما يشتري الإنسان بالتقسيط وليس عنده مال ، فتتراكم الديون عليه ، والدَّيْن همٌّ بالليل ومذلَّة بالنهار .

هذا ما تقوم عليه التجارة الحديثة[1] .

جوائز السحب الكبرى :

وأعجب من ذلك : جوائز السَّحب الكبيرة أو الكبرى ، كالسيَّارات وهذه الأشياء ، أنت تبيع قماشًا أو نحوه ، فما دَخْل السيَّارة في هذا ؟ تُعطي الإنسان سيَّارة لماذا ؟ هذا يُؤدِّي إلى إشاعة رُوح القمار بين الناس ، فكلُّ واحد يريد أن يكسب سيَّارة مجَّانًا ، ليس هذا هو القمار نفسه ، إنما هو رُوح القمار . الإنسان يريد أن يكسب بغير جِدٍّ ، وبغير جَهْد ، بغير كدِّ يمينه ولا عرق جبينه . بضربة حظٍّ يريد أن يحصل على آلاف أو ملايين!

كنتُ يوم الجمعة الماضي في دُبي ، وأنكرتُ عليهم ذلك في محاضرتي ، قلتُ لهم : ما هذا؟ من أول ما نزلتُ المطار وجدتُ إعلانًا يقول : ادفع كذا وكذا واربح مليون دولار . اربح سيَّارة (رولزرايز)! قلتُ : هذا ضدُّ الإسلام ، هذا قمار صريح .

إنما أنا أتكلَّم هنا عن القمار غير الصريح ، كالجوائز الكبرى التي تضعها الشركات هنا وهناك ، لِتُغْري الناس بالمزيد من الشراء ، في غير حاجة إلى ذلك ، هذا ليس أسلوبًا إسلاميًّا . هذا أسلوب يقوم على التزييف ، على الكذب ، يكذبون على الناس ليشتروا ما لا يحتاجون إليه .

وللأسف هذه الأشياء التي تُشترى ليست من مصنوعاتنا ، يعني نحن نُروِّج لمصنوعات غيرنا ، نستورد ونريد مزيدًا من الاستيراد ، لو كانت من صنعنا لهان الأمر علينا .

٣- الكذب في الحياة السياسية :

والسياسة أبلغ ما تكون في الكذب . انظروا : هذا الذي يُسمُّونه (السلام) ، أهو سلام أم هو استسلام؟ استسلام ويسمُّونه (السلام)!

---

(١) انظر : كتاب (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي) للقرضاوي ، صـ٢٦٩ - ٢٧٢ .

هذا التركيع أو التطويع أو التمييع الذي يسمُّونه (التطبيع)! كيف نُطبِّع ما ليس طبيعيًّا؟!

هذا الذي يسمُّونه (إقامة دولة) أو (استقلال) ، أين الاستقلال ، إذا كنتَ لا تملك أرضك ولا سماءك ، ولا مياهك ، ولا تملك قرارك؟! أين هذا الاستقلال؟ هي التبعيَّة ، هي الخضوع الذليل لإسرائيل .

هذا الذي يسمُّونه (الديمقراطية) ، أيُّ ديمقراطية؟ سباق يعدو فيه حصان واحد! ونرى مَن يأخذ (٩٩٪) أو (٩٩,٩٩٪)! هذا هو الزيف .

وهؤلاء الحكام الذين يحكمون أمتنا ، يصوِّرهم الإعلام أنهم أبطال ، وعباقرة ، ومصلحون ، ولم يَجُد الدهر بمثلهم!

هذه حياتنا تقوم على الزيف ، وعلى الكذب .

التزام الصدق وتحرِّيه :

وهذه الأمة لا يمكن أن يستقيم حالها ، ولا يمكن أن ترقى ، وتتبوَّأ مكانها تحت الشمس ، وأن تستعيد مجدها المسلوب ، وتاريخها المغصوب ، إلا إذا التزمت الصدق .

عليكم بالصِّدق ، كما قال ابن مسعود ، عن النبي ﷺ : «عليكم بالصدق ، فإنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق ، حتى يُكتب عند الله صدِّيقًا . وإيَّاكم والكذبَ ، فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرَّى الكذب ، حتى يُكتب عند الله كذَّابا»[1].

الصدق فيه النجاة :

يجب أن نتحرَّى الصدق وإنْ رأينا فيه الهَلَكَة ، فإنَّ فيه النجاة ، وأن نتجنَّب الكذب وإنْ رأينا فيه النجاة ، فإن فيه الهَلَكَة .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٠٩٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٧) ، كما رواه أحمد (٣٨٩٦) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٩) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٧١) .

يقول الشاعر :

عليـــك بالصِّـــدق ولـــو أنـــه أحرقك الصـــدق بنـــار الوعيـــد

فـــإن أغـــبى النـــاس في دينـــه مَن أسخط المولى وأرضى العبيد[1]

هذا هو أغبى الناس ، وأجهل الناس ، مَنْ يُرضي الناس بسخط ربِّه عزَّ وجلَّ .

عُرض رجل على الحجَّاج ، وقد زعم أهله أنه مجنون ، كان قد انتقد الحجاج فأُخذ إلى السجن ، فذهب أهله وقبيلته ، وقالوا : يا أيها الأمير ، هذا رجل مجنون تأتي إليه نوبات . وكانوا قد اتَّفقوا مع صاحبهم هذا ، أنه إذا لقي الحجاج يتظاهر بالجنون . ولكن الرجل حينما لقي الحجاج كلَّمه كلام العاقل اللبيب الحكيم ، فقال له الحجاج : إنَّ قومك يزعمون أنك مجنون . فقال : ما كنتُ لأزعم أنَّ الله ابتلاني وقد عافاني . فقال الحجاج : خلُّوا عنه ، هذا رجل صادق نجَّاه الصدق[2] .

حاجة الأمة إلى الصدق :

الأمة تحتاج إلى أن تصدق ، يصدق حكَّامها ، يصدق علماؤها ، يصدق مُربُّوها ، يصدق تجَّارها ، يصدق كلُّ إنسان فيها : التلميذ في مدرسته ، والموظَّف في مكتبه ، والعامل في مصنعه ، والفلَّاح في مزرعته ، والقاضي في محكمته ، والرئيس في ديوانه ، وكلُّ إنسان في مكانه .

على الجميع أن يلتزموا الصدق ، فليس هناك أفضل من أن يشيع الصدق في أمَّة من الأمم .

أما إذا شاع الكذب فليس وراءه إلا الشرُّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (غافر:٢٨) ، ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (آل عمران:٦١) ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ (طه:٦١).

فالزموا الصدق أيها المسلمون ، وكونوا صادقين في أحوالكم كلِّها : الصدق في القول ، والصدق في العمل ، والصدق في مقامات الدين ، كما قال عزَّ وجلَّ في وصف أهل البرِّ والتقوى : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) من شعر الحارث بن همام .

(٢) انظر : وَفَيَات الأعيان لابن خلِّكان (٣٨/٢) .

ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٧)، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات:١٥).

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (التوبة:١١٩)

أنواع الكذب :

إن الكذب آفة من أعظم الآفات ، ورذيلة من أقبح الرذائل ، ولكن الكذب ألوانٌ وأنواع غير التي سبق بيانها ، وهي الكذب في الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، ومن هذه الألوان :

١- الكذب في الشهادة :

هناك كذب يعتبر من الصغائر ، وهناك كذب يُعتبر من الكبائر الموبقة ، مثل الكذب في الشهادة ، شهادة الزور ، ولذلك قال النبي ﷺ : « ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ » . (ثلاثًا) ، قالوا : بلى ، يا رسول الله . قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » . وجلس وكان متَّكئًا فقال : « ألا وقولَ الزُّور » ، فما زال يكرِّرها حتى قال الصحابة : ليته سكت[1]. إشفاقًا عليه ﷺ .

٢- الكذب في اليمين :

وكذلك الكذب في اليمين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:٧٧) ، « واليمين الفاجرة تَدَع الديار بلاقع »[2].

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤) ، ومسلم في الإيمان (٨٧) ، كما رواه أحمد (١٢٣٧١) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٠١) ، عن أبي بكرة .

(٢) رواه البيهقي في الإيمان (٣٥/١٠) ، وقال بعد أن ذكر الاختلاف في سنده : والحديث مشهور بالإرسال ، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٧٨) ، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (٤٨٤٢) ، عن أبي هريرة . ومعناه كما أوضح المناوي : أن الحالف يفتقر ويذهب ما في بيته من الرزق ، وقيل : هو أن يفرِّق الله شمله ويغيِّر عليه ما أولاه من نعمه . انظر : فيض القدير (٣٦٥/٥) .

فالإنسان الذي يحلف على الكذب ، ويُوثِّق كذبه باليمين وباسم الله عزَّ وجلَّ ، هذا لا يهاب جلال الله ، ولا اسمَ الله .

٣- الكذب على النبي ﷺ :

ومن شرِّ أنواع الكذب أيضًا : الكذب على الله ورسوله ، كما قال النبي ﷺ : «مَنْ كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعدة من النار»[١]. ولذلك على المسلم أن يحرص ألا ينقل الأحاديث المكذوبة ، لأنه إذا نقلها وهي مكذوبة فهو أحد الكاذبين ، كما قال رسول الله ﷺ : «مَن حدَّث عنّي حديثًا ، وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[٢].

عليه أن يتحرَّى ، ولا يأخذ من كلِّ ما هبَّ ودبَّ ، لا يأخذ من الأحاديث إلا ما قرأه في كتاب موثّق معتمد ، يُعَرِّف الصحيح من غير الصحيح ، أو من عالم معتَمَد ، وليس كلُّ مَنْ وقف على المنبر معتمَدًا . وليس كلُّ مَنْ جلس في المسجد معتَمَدًا . لا يعرف هذا إلا أهله ، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر:١٤) ، ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنبياء:٧) .

٤- الكذب في الرؤيا :

ومن أقبح أنواع الكذب : الكذب في الرؤيا ، كما جاء في الصحيح ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال :« إنَّ من أعظم الفِرى ـ أي : من أشدِّ أنواع الكذب والفرية ـ أن يُرِي ـ أي : الرجل ـ عينه ما لم تره»[٣] . كأن يقول : رأيتُك في الرؤيا تلبس أخضرا في أخضر ، وحواليك كذا وكذا . فقطعًا هذا ليس وراءه إلا التدليس والتزييف .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في العلم (١١٠)، ومسلم في المقدمة (٣)، كما رواه أحمد (٩٣٥٠) ، عن أبي هريرة ، وقد ذكره ابن الجوزي في مقدمة كتابه الموضوعات (٥٦/١) ، عن أكثر من ستين نفس ، وهو حديث متواتر مشهور .

(٢) رواه مسلم في المقدمة ، والترمذي في العلم (٢٦٦٢) ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في المقدمة (٤١) ، عن المغيرة بن شعبة .

(٣) رواه البخاري في المناقب (٣٥٠٩) ، وأحمد (١٦٩٨٠) ، عن واثلة بن الأسقع .

٥- كذب الملوك والرؤساء :

ومن أقبح أنواع الكذب : كذب الملوك والرؤساء ، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : « ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكِّيهم ، ولهم عذاب أليم : شيخٌ زانٍ ، وملك كذَّاب ، وعائل مستكبر »[١] .

« وملك كذَّاب » : لأن الأصل أن يكون قُدوةً لشعبه ، والناس على دين ملوكهم ورؤسائهم ، ولكنه يكذب ، ومثل هذا لا يكذب إلا ليضلِّل الناس ، ويدجِّل عليهم .

فكذب هؤلاء من شرِّ أنواع الكذب ، خصوصًا كذب التزييف في الانتخابات وغيرها .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يُفَقِّهنا في ديننا ، وأن يُعلِّمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علَّمنا ، إنه سميع قريب .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

الخطبة الثانية :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

أتحدَّث في هذه الكُليمات عن أمرين :

الأمر الأول : إضراب إخواننا في فلسطين :

هو ما حدث بالأمس ، فقد أضرب إخواننا في فلسطين ، في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وفي فلسطين المحتلة ، أضربوا من أجل يوم الأرض ، الأرض التي اغتصبها الصهاينة قديمًا ، ولا يزالون يغتصبونها إلى اليوم ، قرية بعد قرية ، ومساحة بعد مساحة .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٠٧)، وأحمد (١٠٢٢٧)، والنسائي في الكبرى كتاب الرجم (٧١٠٠) ، عن أبي هريرة .

يفرضون هذا بالقوَّة ، ولا يملك أحدٌ أن يقول لهم : لا . وأرى إخوتنا الفلسطينيين المساكين يذهبون إلى الأرض حينما تأتي (البلدوزرات) وتريد أن تُسوِّيها ، ويقفون هناك ويصرخون ، ولكن الآلات الجهنَّمية لا تُبالي بهم .

وكان المفروض أن يكون هذا اليوم يوم العرب جميعًا ، والمسلمين جميعا ، يتجاوب المسلمون مع هذا اليوم الذي تُغْتَصبُ فيه الأرض أمام أعيننا ، ونحن نرى ونسمع .

لم يعُد لنا حُجَّة ، كان الناس زمانًا لا يرون ولا يسمعون ، ولكن الآن بالتلفزيونات والقنوات الفضائية أصبحنا نسمع ونشاهد ، فلم يعُد لنا عذر ، وقامت علينا الحُجَّة ، وحقَّت علينا الكلمة . فإلى متى نظلُّ نائمين ، ويظلُّ إخواننا يصرخون وحدهم ، ولا مغيث؟!!

اليهود في أنحاء العالم يقفون وراء إسرائيل ، كلُّ يهوديٍّ في المشرق أو في المغرب يرى نفسه مسؤولاً عن إسرائيل ، فلماذا لا يكون المسلمون ـ كل المسلمين ـ مسؤولين عن فلسطين ، عن القدس ، عن المسجد الأقصى؟ هذا هو الواجب .

الواجب : أن نكون جميعًا حيثما كنا ـ في شمال أو جنوب ـ مسؤولين عن هذه الأرض المُقدَّسة ، أرض النُّبوَّات ، وأرض الإسراء والمعراج ، أرض المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، ومسجد الخليل .

الأمر الثانى : زيارة البابا للأراضي المقدسة :

حول زيارة البابا (يوحنا بولس الثاني) إلى الأراضي المقدَّسة في فلسطين . لقد ضلَّلتنا أجهزة الإعلام العربية ، ضلَّلتنا الصُّحف ، وضلَّلتنا الإذاعات ، وضلَّلتنا التلفزيونات والقنوات الفضائيّة ، وزعمت أنَّ البابا اعتذر عن الحروب الصليبيّة ، هكذا قالوا .

وقلتُ في نفسي وقتها : ولكن لماذا لم يعتذر للمسلمين؟ اعتذر لليهود مباشرة ، فلماذا ـ إذا كان اعتذر عن الحروب الصليبية ـ لم يعتذر للمسلمين؟ لماذا لم يعتذر

عمَّا سُفك من دماء بعشرات الآلاف ومئات الآلاف؟ ملايين الضحايا كانت من نتائج الحروب الصليبية .

ثمّ كتب أخونا الكاتب الإسلامي الكبير الشهير الأستاذ فهمي هويدي في مقالته التي نُشرت في عدد من الصحف العربية ، ومنها صحيفة (الشرق) القطرية ، قال : (نحن لسنا طرفًا في اعتذار البابا ، البابا اعتذر صراحةً لليهود في كلمته التي ألقاها). وذكر : (أن هناك إعلانين : إعلان للبابا ، ووثيقة تُعَدُّ منذ ستِّ سنوات ، وإعلان البابا ليس فيه شيء قط عنا .

ولكن في هذه الوثيقة ذُكرت الحروب الصليبية في أربعة سطور ، والوثيقة من حوالي ثلاثين صفحة ، وهذه الأربعة سطور جاءت بصيغة الاستفهام . سئل سؤالاً : هل هناك ما يستدعي الاعتذار عن هذه الحروب؟ وأجابه باستفهام آخر . أجابه عن السؤال بسؤال ، ولم يحدث أيُّ اعتذار بأيِّ لون من الألوان) .

فما هذا الذي جرى؟ لماذا ضلَّلتنا الأجهزة كلُّها ، وزعمت أنَّ البابا اعتذر عن الحروب الصليبية؟ مع أنَّ هناك مِنَ الناس ـ حتى مِنْ غير المسلمين مَنْ بعث إلى البابا ـ مثل الدكتور جورج جبور ، الذي لقيني في المؤتمر القومي الإسلامي في بيروت ، وأهدى لي رسالته التي بعث بها إلى البابا ، ويطلب فيها ما يشبه الاعتذار ـ لم يطلب منه الاعتذار وإنما ما يشبه الاعتذار ـ عمَّا جرى في الحروب الصليبية .

ولكن لا حدث اعتذار ، ولا ما يشبه الاعتذار بأيِّ حال من الأحوال .

هذا هو موقعنا ، وينبغي أن نعلم هذا ولا نبالغ في هذه الأمور ، حتى لا نُضلَّل عن أهدافنا ، ونُضلَّل عن طرائقنا ، ونُضلَّل عن الموقف الصحيح ، الذي يجب أن نقفه من هذه القضايا .

أسأل الله العظيم أن يجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، وأن يجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأن يُحسن عاقبتنا في الأمور كلِّها ، وأن يجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٧).

* * *